

جذور التراث في الشعر العربي المعاصر

الطالب: عطى الله الناصر

المدرسة العليا للأساتذة - بوزريعة - الجزائر

في ظلّ السّيرورة التّاريخية للقصيدة العربيّة، وتدرّجها من عهد إلى عهد، وفي كلّ عصر تكتسب سمات جديدة حتى استوت في تجديدها على صورة القصيدة المعاصرة، وفي ظلّ الثّقافة الوافدة من الانفتاح على تطور القصيدة الغربيّة شكلا ومضمونا، وفي ظلّ التّحولات السّياسيّة والاجتماعيّة الّتي شهدها العالم العربي من بداية النّهضة. وجد الشّاعر المعاصر نفسه ملزما على أنّ يثري أعماله الإبداعية بطاقات تعبيرية جديدة، وأشكال فنيّة مستحدثة رفيعة، فاتجه إلى التّراث بمفهومه الشّامل واستحضره بحقيقته وخياله، واتكأ عليه يستمد منه الصّور والتّعابير واختار له لغة خاصة. ورؤيا مستحدثة تعمق فيها الكثير من الأدباء والنقاد.

الكلمات المفتاحية: الأدب ، الجديد ، الحديث ، القديم، الشّعريّة ، الشّاعر، التّراث.

Abstract

On the light of the historical process of the Arab poem, and its gradation from one era to another, also in every age new features are acquired until they are restored to the image of the contemporary poem. In the light of the coming culture from the openness Western poem evolution from the viewpoint format and content of culture, moreover, with regard to the political and social changes witnessed by the Arab world from the beginning of the Renaissance, the contemporary poet found himself forced to enrich his creative work with new expressive cards, artistic and highly innovative, and artistic forms. So, he veered to the heritage in its comprehensive concept and imagination, on which he leaned on it deriving images and expressions and chose a special language for it, and an innovative vision in which many writers and critics have deepened.

Keywords: historical process, contemporary poem, innovative, poem evolution

التّراث والشّاعر: تتأسّس علاقة الشّاعر بالتّراث بمجرد نظمه بواكير مقطوعاته، لأنّه يتحدّ بهذا التّراث في موروثاته الفنيّة، وتتسع علاقته به عبر العصور الأدبيّة، حتّى تتداخل فيصعب التّخلّص منه، ويغدو مظهرًا من مظاهر الشّعريّة. ولأنّ التّطور سنّة كونيّة يحصل فيتحول التّفاعل والامتزاج إلى صراع بين دعاة التّراث والحداثة، فينقسم الأتباع إلى قسمين يقف كلّ قسم إلى جانب مفهوم وينتصر له على حساب الآخر.

ومن أقدم المعارك التّاريخيّة الّتي عكست ذلك الصّراع، أنصار القديم وأنصار الحديث في الأدب اليوناني قبل الميلاد، فقد بنى أفلاطون علاقة الشّاعر بالتّراث على رفض الأخير، لأنّه تراث الخرافة الّذي لا يصلح في بناء المدينة المثالية فمسألة الصّراع بين القديم والجديد لم تكن أبدا وليدة العصر الحديث؛ بل تمتدّ جذورها إلى عصور قديمة.

التراث في العصر العربي المعاصر ————— مجلة فصل الخطاب

وفي تراثنا الأدبي العربي برز هذا الشكل من الصّراع منذ أن أعلن أبو نواس ثورته على معاني القصيدة النّموذج (القصيدة الجاهلية)، إذ أدت التّغيرات السياسيّة والاجتماعيّة، والانفتاح على مختلف الثقافات والمشارب غير العربيّة، على رأسها الفارسيّة، إلى إعلانه الخروج على ما تعارف عليه العرب والمسلمون، و«امتزجت روح أبي نواس بروح العصر ومقوماته الجديدة المؤمنة بحرية الفكر والعقيدة»¹، ودعا صراحة إلى نبذ تراث الأطلال، واستمّزاً من النّعوت والأوصاف القديمة، لأنّها تراث أفل، وبينته المشهور يعلن هذا الصّراع صراحة²:

عاج الشّقيّ على دارٍ يسائلها وعدتُ أسألُ عن خَمَازِ البَلَدِ

فالشّاعر يحقر ويحط من قيمة الرسم — آثار الدّيار والطلل — لدرجة جعله من نصيب كل شقي، وبمرور السّنين تأصّل هذا العداء، ونما حتى بلغ أشدّه، واتسعت دائرته لتتعدى الشّعير والأدب إلى مجالات الفكر والتّصورات.

وفي العقود الأخيرة بلغ الصّراع الذّروة نتيجة اتساع دائرة الفكر وامتزاجها بالتّصورات الغربيّة، فصار المفهوم بحدّ ذاته مثار طعن وشكّ، فقد أنكر أنصار الحداثة مصطلح التراث برمته وعدّوه مصطلحاً جديداً، فالجابري رفض وجود هذه الكلمة بمعنى الموروث الثقافي، وأشار إلى أنّ شؤون الفكر والثقافة كانت غائبة تماماً في المجال التداولي³، بمعنى أن شؤون الفكر والثقافة كانت غائبة عن المجال التداولي أو الحقل الدلالي وهذا لتبيين حضور وتوظيف لفظ "تراث" عند الشّاعر في الخطاب العربي خطاب ما قبل اليقظة العربية الحديثة، وخطر هذا الإنكار يكمن في أنّ التّراث في نظر المؤيدين له يمثل محركاً أساساً لسلوك الأمة، وحافزاً لها على البقاء والاستمرارية في الحياة، بل يمثل مرجعاً للجماعة يرجعون إليه عند الخلاف، ويحتكمون إليه عند الصّراع مع الآخر، وهذا لا يجعل من التّراث مرجعاً أصمّاً لأنّه نتاج تحقق؛ بل هو عطاء متوارث ينمو بنمو الأهل، ويتطور بتطورهم⁴.

ولا يمكن أن ننهي هذا الإشكال المطروح في وجود التّراث كمفهوم تداولي إلا بالوقوف على مفهومه في الفكر المعاصر، لأنّ لفظة تراث لم تكتسب صفة المصطلح إلا في العصر الحديث، بعد أن اهتم المستشرقون بالبحث في آثارنا الأدبيّة والفكريّة والدينيّة.

المرجعية اللغوية لمفهوم التراث:

أ- المدلول اللّغوي: جاءت كلمة (التّراث) في المعاجم العربيّة تحت "وَرَثَ": وهو فعل ثلاثي. ففي لسان العرب: الوَرَثُ والوَرِثُ، والإِثْرُ، والوَرِاثُ، والإِراثُ، والتّراثُ واحد: ما يخلفه الرجل لورثته. وفي حديث الدّعاء: «إليك مآبي ولك تراثي». وقال ابن سميرة: «الوَرِثُ والميراثُ في المال، والإِثْرُ في الحسب»⁵، فالأول مادي والثاني معنوي حسي ليس له علاقة بما هو مادي ملموس.

وفي معجم مقاييس اللغة: وَرَثَ: الواو والراء والثاء: كلمة واحدة هي الوَرَثُ؛ والمِيرَاثُ أصل الياء واو (المُوَرَاثُ): وهو أن يكون الشيء لقوم ثم يصير إلى آخرين بنسب أو سَبَبٍ⁶ وَرَثَاهُنَّ عَنْ آبَاءِ صِدْقٍ وَنُورُهَا إِذَا مُتْنَا بَنِينًا⁷

وفي المعجم الفرنسي: LAROUSSE جاءت كلمة " التَّراث " موزعة بين HERITAGE و PATRIMOINE. فالأولى جاءت بالمعنى المادي "المال الذي يتركه الوارث لأولاده"، أما الثانية فأشارت إلى المعنى الثقافي والفني لدولة من الدول، كما ارتبطت بمعاني اقتصادية وعلمية⁸. ومن دلالة التراث على المعاني المادية، في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَتَأْكُلُونَ التَّرَاثَ أَكْلًا مَمَّا﴾ [الفجر: 19]، وجاء بمعان خارجة عن المادة؛ إذ شمل كل منتقل ومتوارث، سواء كان جرماً متعلقاً بالمخالفة أو معنى. قال الله تعالى: ﴿لَكُمْ أَوْزُنُا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: 32]، وقوله: ﴿وَكَانَ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: 5، 6].

ب- المدلول الاصطلاحي: لم يظهر المفهوم الاصطلاحي للتراث إلا في الفكر الحديث، وخاصة فيما نقله الكتاب العرب عن المستشرقين الذين بدأوا يتحدثون عن مكونات الشخصية الإسلامية، وما يتعلق بها من علوم ومعارف وآداب وفنون ونحو ذلك، بوصفه تراثاً ومكتسباً معنوياً، يسمح أن يقفوا منه موقف الانتقاء، ويضعوه في ميزان المفاضلة مع الوافدات الفكرية الجديدة من الخارج.

بدأ نشر التراث العربي الإسلامي مطبوعاً في الربع الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي، وكان المستشرقون أول من سبق إلى ذلك بنشر بعض المخطوطات كشرح ديوان المفضليات لابن الأنباري، والفهرست لابن النديم، والكتاب لسيبويه، ثم هذا المفكرون العرب حذوهم في عملية التحقيق ضمن قواعد العلم، وراحوا يضبطون مفهومه رداً على دعاة الاسلام الذين حصروه في قولهم: «التراث هو كل ما يتناقله الخلف عن السلف، فيخلفونهم فيه خلافة جبرية، وقد يكون الموروث مادياً؛ مالا أو غيره، وقد يكون غير مادي؛ كالعلم ونحوه. ونعني بالتراث هنا على وجه الخصوص: هذه الثروة الكبيرة الثمينة الغالية التي خلفها لنا أسلافنا في شتى مناحي العلوم الدينية في مؤلفاتهم وكتبهم التي عنيت بالعلم الشرعي كالتفسير والحديث وعلومهما، والفقه والأصول، والتي لا نفهم القرآن والسنة إلا بها»⁹.

واعترض على هذا التحديد كثير من المفكرين، فنجد عائشة عبد الرحمن _ مثلاً _ ترى أنه حين يذكر "التراث"، يتجه القصد غالباً إلى نطاق يحصره في قديم المخطوطات من علوم العربية والإسلام. ويغيب عنا أول ما يغيب: أنّ تراثنا يستوعب إلى جانب ذلك كله ما ترك أسلافنا من ثمار عقولهم في مختلف فروع المعرفة وميادين العلم ؛ فتراث الأمة لا يقف عند بداية التاريخ الإسلامي، وإنما يمتد مع ماضينا إلى ما قبل ذلك موعداً في أعماق الزمن إلى كل

التراث في الفكر العربي المعاصر _____ مجلة فصل الخطاب

الحضارات الفكرية التي ازدهرت في وطننا¹⁰، وهذا القول يشير إلى التعريف الاصطلاحي للتراث تعريفاً يجمع عليه الكثير من المفكرين المعاصرين كالجابري، والعروي، ومحمد أركون، ومحمود نجيب، وغيرهم. فيتسع ليشمل كل موروث وصل إلينا من أسلافنا أو أسلاف غيرنا من الأمم الأخرى، منه ما هو فكر، ومنه ما هو فن، أو قيم وأعراف، أو علوم شرعية ومدنية. «إن التراث كما وفد إلينا يجب تداوله اليوم، فهو يجد إطاره المرجعي داخل الفكر العربي المعاصر وليس خارجه فإلى هذا الإطار، وإليه وحده يجب أن نتجه باهتمامنا الآن¹¹ كما أن كلمة تراث أخذت أبعاداً لم تكن معروفة عند السابقين، وأصبحت تعامل بشيء من الحساسية المفرطة كباقي المصطلحات المتعلقة بالهوية؛ حيث صار هذا المصطلح «وثيق الارتباط بأنماط السلوك البشري الراهن، وبالحياة الحضارية للأفراد والجماعات، وبكل ما له صلة بوجود الإنسان الحي على سطح هذه المعمورة من أنظمة وقيم ودساتير، ومعتقدات، ووسائل العيش، وإمكانات التصور، ونحو ذلك»¹²، ولذلك يربطه "حسن حنفي" بالحضارة السائدة «التراث هو كلّ ما وصل إلينا من الماضي داخل الحضارة السائدة، فهو إذا قضية موروث، وفي نفس الوقت هو قضية معطى حاضر على عديد من المستويات»¹³. وقصديّة هذه المستويات هي:

أ-المستوى المادي: وهو التراث الموجود في «المكتبات والمخازن، والمساجد والدور الخاصة، فهو تراث مكتوب، مخطوط، أو مطبوع له وجود مادي»¹⁴. وهو المعنى الأكثر تداولاً بين الناس.

ب-المستوى الصوري: وهو التراث المخزون في نفوس الجماهير «التراث القديم ليس قضية دراسة للماضي العتيق فحسب، الذي ولى وطواه النسيان؛ بل هو أيضاً جزء من الواقع ومكوناته النفسية. ما زال التراث القديم بأفكاره وتصورات ومثله موجهاً لسلوك الجماهير، إما بعاطفة التقديس...أو بالارتكاز إلى ماض زاهر تجد فيه الجماهير عزاء عن واقعها المضني»¹⁵، يريد معتقدات كل أمة، وثقافتها الماثورة المتوارثة من جيل إلى جيل، وبهذا يأخذ المستوى الثاني مرجعيته من المستوى الأول، فيصبح التراث قيمة حيّة في وجدان الفرد، يؤثر فيه، ويكون باعثاً على سلوكه. وهو ما يؤكد محمد أركون في تعريفه له بقوله: «فالتراث هو ما فرضته الأجيال السابقة على الجيل الحاضر، وعلى هذا فهو سنة الآباء وأخلاقهم وتقاليدهم.. وهو مجموع ما وصلنا مما أنتجه الأقدمون من فكر وما تركوه من أثر»¹⁶. ولا يخرج الجابري عن هذه الرؤية في قوله: «التراث: هو كل ما هو حاضر فينا أو معنا من الماضي، سواء ماضينا أم ماضي غيرنا، سواء القريب منه أم البعيد.. فهو يشمل التراث المعنوي من فكر وسلوك، والتراث المادي: ويشمل التراث القومي والتراث الإنساني»¹⁷، وهذا الضبط يوسع المفهوم ليشمل كلّ حضارة على وجه الأرض.

والنتيجة التي توصلت إليها هو أنه مصطلح فضفاض يتسع حتى يسع كل الأجيال على الأرض بكل حضاراتها، ويضيق حتى لا يتسع لقوم في وطن واحد. ولعل التعريف العام الذي يخدم موضوع البحث في إطار "التراث كما وظفه المعاصرون" هو التعريف الذي قدمه محمد الجابري الذي اشتغل بثنائية التراث والحداثة وراوح بين التفكيك والبناء، ويجمع الموروث الإنساني الثقافي والاجتماعي، المعروض في المكتبات، والصوري المخزون في النفوس، الرسمي والشعبي الذي وصل إلينا من الماضي البعيد والحاضر القريب وما يزال النقاش حول التراث مستمرا إلى يومنا هذا من خلال طرح مفاهيمه ومصطلحاته الاجرائية ورصد قضاياها الفكرية والمنهجية.

ونظرا لأهمية التراث العربي في بناء الثقافة العربية الحديثة والمعاصرة معرفيا وتصوريا وفكريا فإن التراث الذي استدعاه رواد الشعر المعاصر لا يقتصر على التراث العربي الإسلامي وحده، بل يتمدد في جوف التاريخ ليصل كل حضارة، فهو «يمتد في جوف الزمن إلى تلك الحضارات القديمة التي عرفناها في سومر، وبابل فينيقيا، ومصر الفرعونية... التراث ليس هو الطابع أو الخصائص القومية، وإنما هو أشمل وأعمق، ذلك أن الحضارة الإنسانية دورات جدلية لا تنتهي، وبالتالي فهي تستوعب أبقي ما في تراث الشعوب لتحيلها مع المنجزات الجديدة في العالم إلى تراث إنساني من حق الكائن البشري، أيا كان لونه، أو دينه، أو جنسه في هذا الوجود أن يأخذ وأن يضيف إليه»¹⁸، وانطلاقا من هذه المرجعية وظفه الرواد مستمدين منه قوته التاريخية والروحية، فهو ثمرة الأسلاف من كل جنس، اجتمعت لتشكّل شعورا إنسانيا موحدًا.

موقف الفكر العربي المعاصر من التراث: تبلور الخطاب الفكري في خضم الصراع بين عدة تيارات مختلفة، تحاول تأصيل أفكارها، فلقد برزت تيارات تنادي بالفكر الغربي كأساس منهجي علمي يساعد العقل العربي على تخطي أزمارته الفكرية واللحاق بركب الحضارة العالمية، وهناك من رفض هذا الفكر وحاول الرجوع إلى التراث باعتباره القاعدة الأساسية التي من خلالها نستطيع الحفاظ على الهوية العربية، فأما عز الدين إسماعيل فتناول علاقة الشعر العربي المعاصر بالتراث في كتابه الشعر العربي المعاصر، تناولاً تطبيقياً راجع خلاله حضور الموروث في النص الشعري لدى كثير من الشعراء الرواد، حيث قام بدراسة التظاهرات المختلفة للتراث في المتن الشعري العربي المعاصر بعد استقصاء مختلف مراحل هذا الحضور، فلاحظ أن التراث تجلّى واختفى في الشعر العربي المعاصر في الوقت ذاته، الأولى عندما قرّر الشاعر المعاصر إعادة قراءة الموروث قراءة صادقة معبرة عن رؤية ذات صلات وثيقة بالماضي، والثانية عندما كُسر إطار الشعر القديم فاخترى التشكيل المعماري الأنموذج، وعُوض بالتجارب التشكيلية المتفردة

التراث في الشعر العربي المعاصر _____ مجلة فصل الخطاب

النابعة من الرغبة في بناء النموذج المتغير لا النموذج الثابت، يقول إسماعيل: « ففي زحمة اشتغالنا بتجربة الشعر الجديد والتجديد بعامة، تحتد بعض عباراتنا أحيانا حتى يخيّل للإنسان أنّ هذه التجربة إنما بزغت للوجود لكي تعبّر عن موقف عدائي مباشر أو غير مباشر للتراث الأدبي العربي بعامة، وللشعر القديم بخاصة، أو هكذا يخيّل لفئة من الناس تنسب لنفسها الغيرة على كل ذلك التراث»¹⁹، وهو ما أشارت إليه نازك الملائكة في ثنايا حديثها عن الشعر الحر، بقولها: «ما زال المتعصبون والمتمزتون من أنصار الشّطرين، يدرجون في طريق الشعر الحر صخورهم التي يظنونها ضخمة، بحيث تقتل هذا الشعر وتريحه من الوجود»²⁰، فمقولة الحداثة والتقليد أثرت في الشعر كما راجت في الفكر.

الحداثة ظاهرة حياتية تاريخية، لا يخلو منها أي عصر، وكلما طغى التجديد الحادث انقسم الناس من حوله قسمين: قسم يقف إلى جانبه، وقسم يعلن عليه الحرب ويناصبه العدا. فبعد نهاية الحرب العالمية الأولى كثرت كلام الناس عن القديم والجديد، وشغلوا بالمعارك العنيفة التي دارت بين أنصار المذهبين في سائر نواحي الحياة، وكانوا يعنون بالقديم يقول عثمان حشلاف: «الحداثة هي موقف للروح أمام مشكلة المعرفة، إنها موقف للروح أمام كل المناهج التي يستخدمها العقل للتوصل إلى ما هو ملموس في الواقع»²¹، أما الجديد فهو كل وافد إلينا من الحضارة الغربية، فبعد سقوط الدولة العثمانية، وانهزامها أمام جيوش أوروبا برز دعاة الحضارة الغربية يدعون إلى الإقبال على أشكال هذه الثقافة رضوخا وتبعية، يصدقهم قول ابن خلدون «المغلوب مولع أبدا بتقليد الغالب في شعاره وزيه ونحلته، وسائر أحواله وعوائده»²²، وصادفت هذه الدعوة قبولا كبيرا عند كثير من الناس خاصة فئة المثقفين من الشباب «الذي عاش جو الثورة التي تغري بالتّمرّد على كل قديم، والاستخفاف بكل تالد موروث... فأخذ يشارك في التّجمعات المختلطة، وراح يتمتع نفسه بالمشاركة في احتفال الأوروبيين بأيام الأحد وبرأس السنة الميلادية، يسايرهم في أسلوبهم، ويحتذي حذوهم»²³، وكان موقف هؤلاء من التراث موقف الرفض لكلّ قديم، لأنّه أحد مظاهر التّخلف وأبرزها. وتعالّت الأصوات داعية إلى قبر التراث، واللّحاق بركب الحضارة الغربيّة الأوروبيّة التي انسلخت من موروثها القديم من خلال حركة الإحياء والتي قطعت الصّلة بالحاضر والماضي التّصّراني، وحملت حملة عنيفة على الكنيسة وقيمها، وبهذا تحدد الموقف من التراث بالرفض الكامل لكل أشكاله، واعتباره عبثا عائقا عن الانطلاق مع الحياة المتجددة²⁴.

ولأنّ لكل فعل ردة فعل توازيه أو أقوى منه، فقد برز إلى الوجود جيل أعلن التّمسك بالتّراث، وخاصة التراث العربي الإسلامي وعلت أصوات أصحابه معلنة أنّ تراثنا القديم حوى كل شيء مما مضى أو مما هو آت « هو فخرنا وعزنا، وتراث الآباء والأجداد، وتبرز معاني كثيرة

من الأحاديث، مثل (لا يصلح أمر هذه الأمة إلا ما صلح به أولها) و(خير القرون قرني ثم الذي يلونهم).. فلا يتقدم الحاضر إلا بالرجوع إلى الماضي»²⁵. وهي دعوة صريحة للرجوع إلى التراث فهو الحل لجميع القضايا العالقة الحاضرة.

حصيلة هذا الصراع الذي أفرغ العقول وأجهد الأذهان، أن التراث جزء من المخزون النفسي للأمة، وهو أحد مكونات الواقع، كالعادات والتقاليد، والأمثال الشعبية، وهذه المقومات لا تلغى، بل تستخدم ويعاد صياغتها لتطوير الواقع «وتطوير الواقع لا يتم بطريقة آلية عن طريق استبدال جماهير بأخرى أفضل، وواقع بواقع آخر أكمل، بل بتطوير الموجود بالفعل دون نظر إلى التكاليف أو الوقت أو الجهد، فهذا هو البناء الأبقى»²⁶، فلا معاصرة دون أصالة، ولا أصالة صادقة دون معاصرة فاعلة، ذلك هو الإبداع والتجديد الذي يتطلع إليه كل جيل وينشده كل مفكر، ويسعى إلى تحقيقه كل شاعر يعيش آلام أمته وهمومها.

-علاقة الشاعر مع التراث العربي: علاقة الشاعر بالتراث علاقة قديمة، ولدت مع الشعر ذاته؛ فالشاعر بمجرد أن يبدأ في قرض شعره يتناص مع التراث في موروثاته اللغوية والأسلوبية والموسيقية، ومن ثم تتحرك علاقة به عبر كل العصور، وفي كل المذاهب والمدارس «الشعر المعاصر لم يشكل السابقة الشعرية الأولى في توظيفه لهذا التراث، فقد كان هناك رعي أول سبقه في هذا الميدان»²⁷

علاقة الشاعر بالتراث تكمن عند اللحظة الأولى التي يجرب فيها أدواته المشكلة للنص الشعري، وهي علاقة لا تتوقف لأنها «علاقة جدل دائم مع موروثة الخاص من التراث ككل»²⁸، وهذه العلاقة التي يعتبرها النقد الأسلوبى الحديث تداخلا نصيا بين النص التراثي والنص الشعري، تأخذ أشكالا مختلفة يمكن حصرها في شكلين: شكل ينطبق على النصوص القديمة، ونسميه "الاقتباس"، سواء كان اقتباسا صريحا مباشرا أو خفيا غير مباشر، وشكل تميز به الشعر المعاصر ونسميه "الاستلهم" وهو «وهو مفهوم يتجاوز التوظيف والاستحضار والاقتباس، فإذا كان الاقتباس مجرد استحضار للمادة التراثية، بصورة بلاغية لنقل التجربة الشعرية، فإن الاستلهم يمثل روح المادة التراثية، والارتفاع بها إلى مستوى الرؤية الشعرية، «وهي القدرة على تحويل الزمن المبكر المظلم المشوش إلى زمن هندسي، إيحائي، وهي الإلمام بأبعاد التجربة في أصقاعها البعيدة، وبعثها وجودا واقعيا، لأنه ملازم لطبيعتها المتعلقة بباطن الوجود، بلغة الرمز، التي تعد المعبر الوحيد الذي يمكن من خلاله إيصال الدلالة اللازمة»²⁹.

عوامل استحضار التراث في الشعر المعاصر: الدوافع التي وقفت وراء انتشار ظاهرة استلهم التراث؛ كصورة من صور الرجوع إلى الماضي، وتمثل النص الغائب الذي هو مصطلح نقدي جديد، ظهر في ظل الاتجاهات النقدية الجديدة، وعنى أن العمل الأدبي يُدرك في علاقته

التراث في الشعر العربي المعاصر _____ مجلة فصل الخطاب

بالأعمال الأخرى. فالأدب ينمو في عالم مليء بكلمات الآخرين. و(النص) تشكيل لنصوص سابقة ومعاصرة، أُعيدت صياغتها بشكل جديد. وليست هنالك حدود بين نص وآخر، وإنما يأخذ النص من نصوص أخرى، ويعطيها في آن. ولقد اختصر عز الدين إسماعيل هذه الدوافع في كتابه الشعر العربي المعاصر كالآتي:

1-العوامل الفنية: إحساس الشاعر المعاصر بغنى التراث وثرائه بالمواقف والأحداث والإمكانات الفنية، والتي من خلالها يصل تجربته الشعورية بتجارب لها حضور قوي ومؤثر في حياة الناس ولهذا «نجد الشاعر يفسح المجال في قصيدته للأصوات التي تتجاوب معه، والتي مرت ذات يوم بنفس التجربة، وعانتها كما عاناها الشاعر نفسه»³⁰، ويضاف إلى هذا الإحساس نزوع الشاعر المعاصر إلى الموضوعية والدرامية هروبا من الذاتية التي سيطرت عليه، مدفوعا إليها بتأثير الرومانسية، فلجأ إلى استخدام التراث كمعادل موضوعي، حيث كان يتخذ من الشخصيات التراثية قناعا يبت من خلاله خواطره وأفكاره.

2-العوامل الثقافية: - لاشك أن استدعاء التراث بصورة «الانتقال بعلاقة الشاعر بموروثه من مرحلة (التعبير عن الموروث) إلى مرحلة (التعبير به)»³¹ يعتبر التراث معطى حضاريا وشكلا فنيا في بناء القصيدة الشعرية المعاصرة، فقد ذهب الشاعر العربي المعاصر إلى ثقافته ومراجعته مراجعة واعية وفاعلة وحداثية تمكنه بكشف كنوزه وقيمه والعمل على تثمينها وتوظيفها بما يخدم تجربته الشعرية المعاصرة، ويوسع فهمه لها بما اكتسبه من ثقافات مختلفة، هذا من أجل منح الشاعر لإبداعه رؤيا جديدة تكفل له الإبداع الحق، بعد أن يكون هذا التراث جزءاً من تكوينه الخاص بصقل منهجه ونظريته وفهمه لما يبدهه.

3-العوامل السياسية والاجتماعية: لا يخفى على أحد حياة القهر والحرمان والطغيان السياسي والاجتماعي التي عرفها العالم العربي سواء بفعل الاستعمار أو الاستبداد السياسي «فقد ربطت المؤسسة السياسية القائمة آنذاك العراق بعجلة الاستعمار، وصادرت الحريات العامة والشخصيات، وأفقرت الشعب، كما اتسم الوضع الاجتماعي بسيادة القوى المحافظة وجمود التقاليد، وكان على الشاعر أن يدخل معركة الحرية ضد القوى والمؤسسات الحاكمة...»³²، فحين يشتد الطغيان والقهر على الشاعر، فإنه يرتد إلى وسائله، وأساليبه ليعبر بها عن آرائه وأفكاره بطريقة فنية مستحدثة غير مباشرة.

4-العوامل القومية: يعد التراث من أهم الركائز التي تركز عليها الأمة لتواجه محاولات القضاء على وجودها القومي. ولهذا كان الشعراء مطالبين بربط الناس بأمتهم؛ لأنهم ضمير هذه الأمة ووجدانها، «فالأديب الذي يفقد اتصاله بتاريخ قومه، وتراث أمتة، لا يصلح بحال ما أن يعبر عن وجدانها المعاصر»³³، فالشاعر مطالب بأن يحيي ضمير الأمة حين يستلهم التراث،

و«أن يستلهم منه المواقف أو حوادث معينة ذات طابع رمزي ثري ومكثف، بهدف إذكاء الحساسية لدى المتلقي، وتعميق وجوده، وربط الصلة بين ماضيه وحاضره في تلاحم كلي يؤدي في النهاية إلى تكوين رؤية شاملة لواقعه، كأنه بذلك يخاطب شيئاً حياً في ضمير الشعب»³⁴، ومن هنا ليس غريباً أن يكون الشاعر أول من ينهض بعبء إحياء التراث، لتستمد منه أمته قوتها، وبذور بقائها.

5-العوامل النفسية: - لقد وجد الشعراء المعاصرون أنفسهم في عالم مقفر تراجعت فيه القيم والمثل، وغابت أواصر المحبة، وباءت كل محاولات التغيير بالفشل، فعانوا من الاغتراب، ونشدوا عالماً آخر أكثر نضارة وصفاء، فلم يجدوا ذلك إلا في أحضان التراث، وقد تجلت ظاهرة الاغتراب في تعبير الشعراء عن واقع المدينة التي أصبحت «تحمل كل صفات العزلة والتفرد والضيق. فالتأس في المدينة لا تربطهم بعضهم ببعض أية أواصر من المحبة والمعرفة والجيرة. أنهم مجرد غرباء»³⁵، فكان هذا الشعور دافعاً أساسياً للهروب من الواقع ناشداً عالماً آخر أكثر تلقائية، وبساطة، وعفوية وجده بين أحضان التراث.

وما يمكن قوله في الأخير هو أن أبرز ما شيد لهذا الاكتمال، أصالة التجربة الفنية، وعمقها عند الشعراء المعاصرين وسعة دائرة ثقافتهم، وصلابة مرجعيتها المتمثلة في: التراث الأدبي العربي، والثقافة الغربية، والموهبة الفردية الفذة، وهذا كله من أجل التعبير عن معاناة النفس الإنسانية من خلال تجاربهم الشعورية عبر امتداد زمني، استلهاها للماضي، وتعبيراً عن الحاضر، واستشرافاً للمستقبل. وفي ظل التحولات السياسية والاجتماعية التي شهدها العالم العربي من بداية النهضة. وجد الشعراء أنفسهم مجبرين على أن يثروا أعمالهم الإبداعية بطاقات تعبيرية جديدة، وأشكال فنية مستحدثة رفيعة، فأتجهوا إلى التراث بمفهومه الشامل واستحضروه بحقيقته وخياله، واتكأوا عليه يستمدون منه الصور والتعابير للتعبير عن أحاسيسهم وقضاياهم.

مراجع البحث وإحالاته:

- 1 مدحت الجيار، الشاعر والتراث، دراسة في علاقة الشاعر العربي بالتراث، دار الوفاء، الإسكندرية، د. ط، 1995، ص: 149
- 2 أبو نواس، الديوان، شرح محمود أفندي واصف، المطبعة العمومية في مصر، ط1، 1898، ص: 266
- 3 ينظر: الجابري محمد، التراث والحداثة، مركز دراسات الوحدة العربية، المغرب، ط1، 1991م، ص: 21.
- 4 ينظر: عبد الرحمن بن زيد الزبيدي، السلفية وقضايا العصر، دار إشبيليا للنشر، السعودية، ص: 317
- 5 ابن منظور: لسان العرب، باب الثاء، فصل الواو، دار بيروت، د. ط. ت، ص: 200
- 6 أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تج: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، د. ط. ت، ص: 105.

- 7 عمرو بن كلثوم، الديوان، تحقيق، إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 1996، ص: 86
- 8 GRAND DICTIONNAIRE ENCYCLOPEDIQUE LIBRAIRIE. LA ROUSSE. TOME: 8. GRAND DICTIONNAIRE ENCYCLOPEDIQUE P: 7889
- 9 جمال سلطان، مجلة البيان، لندن، العدد، 137، يونيو 1999، ص: 36.
- 10 ينظر: عائشة عبد الرحمن، تراثنا بين ماض وحاضر، دار المعارف، مصر، د. ط، 1970، ص: 7، 8، 9، 10.
- 11 ينظر: الجابري محمد، التراث والحداثة، مركز دراسات الوحدة العربية، المغرب، ط1، 1991م، ص: 24.
- 12 عثمان حشلاف، التراث والتجديد في شعر السيّاب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986م، ص: 11.
- 13 حسن حنفي، التراث والتجديد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط5، 2002، ص: 13
- 14 المرجع نفسه، ص: 14.
- 15 نفسه، ص: 16.
- 16 نقلا عن: عبد الرحمن بن زيد الزبيدي، السلفية وقضايا العصر، (م س)، ص: 319.
- 17 الجابري محمد عابد، التراث والحداثة، (مس)، ص: 45.
- 18 غالي شكري، التراث والثورة، دار الثقافة الجديدة، بيروت، ط3، 1996، ص: 14.
- 19 عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر- قضايا وظواهره الفنية والمعنوية- دار الكتاب العربي، القاهرة، د. ط، 1967، ص: 17
- 20 نازك الملائكة، قضايا الشعر العربي المعاصر، دار العلم للملايين، بيروت، ط6، 1981، ص: 07.
- 21 عثمان حشلاف، التراث والتجديد في شعر السيّاب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986م، ص: 53.
- 22 عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، دار القلم، بيروت، لبنان، ط6، 1989، ص: 147.
- 23 محمد محمد حسين، المرجع السابق، ص: 186، 187.
- 24 ينظر: عبد الرحمن بن زيد الزبيدي، السلفية وقضايا العصر (م س)، ص: 324.
- 25 حسن حنفي، التراث والتجديد (م س)، ص: 27.
- 26 المرجع نفسه، ص: 29.
- 27 بلحاج كامل، أثر التراث الشعبي في تشكل القصيدة العربية المعاصرة- قراءة في المكونات والأصول دراسة- اتحاد الكتاب العرب، دمشق، د. ط، 2004، ص: 19.
- 28 مدحت الجيار، الشاعر والتراث، (م س)، ص: 17.
- 29 إبراهيم رماني، الغموض في الشعر العربي الحديث، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991، ص: 107.
- 30 عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر (م س)، ص: 307.
- 31 علي عشري زايد، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، (م س)، ص: 24
- 32 محمد راضي جعفر، الاغتراب في الشعر العراقي المعاصر، مطبعة اتحاد الكتاب العرب، 1999، ص: 03
- 33 عائشة عبد الرحمن، قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر، دار المعارف، مصر، 1970، ص: 165.
- 34 عثمان حشلاف، التراث والتجديد في شعر السيّاب، ص: 54.
- 35 مفيد محمد قميحة، الاتجاه الإنساني في الشعر العربي المعاصر، دار الأفاق، بيروت، ط1، دت، ص: 368